

## دور الطريقة الرحمانية في مقاومة الاحتلال الفرنسي مقاومة المقراني والحداد 1871م أنموذجا

د. حياة تابتي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

tabtihayet81@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2022/06/06

تاريخ الإرسال: 2017/12/29

### ملخص:

كانت فترة الكفاح المسلح للجزائريين في القرن 19م طويلة جدا، قدم خلالها الجزائريون ثمنا غاليا حيث استشهد الملايين من الأبناء و تشرذ آخرون وجردوا من جميع ممتلكاتهم، ومن بين أهم المقاومات الشعبية التي انتشر صدها في مختلف أنحاء الجزائر مقاومة المقراني والشيخ الحداد التي اندلعت في 1871م، والتي أدت لزعزعة السلطات الفرنسية. وقد ساهم الشيخ الحداد من خلال الطريقة الرحمانية مساهمة كبيرة وفعالة في دعم مقاومة المقراني، وذلك بإكسابها تأييدا شعبيا واسعا مكنها من الصمود أمام الجيش الفرنسي بعد سلسلة من المعارك، حيث أن معظم جهود المقراني في استمالة رؤساء القبائل قد ضاعت بعدما رفض الكثير منهم الاستجابة لدعوته، إلا أنه نجح في استمالة الشيخ الحداد وأتباعه، فعوض بذلك ما فقدته في الآخرين من تأييد نظرا للنفوذ الواسع الذي كان للطريقة الرحمانية، ولكن المقاومة لم تدم طويلا وباءت بالفشل، ما أدى لمعاينة أفراد العائلتين من قبل السلطات الفرنسية. ولكن رغم ذلك كان لهذه المقاومة أهمية كبرى في عدة جوانب بالنسبة للجزائريين على المدى البعيد.

**الكلمات المفتاحية:** مقاومة، المقراني، الطريقة الرحمانية، الشيخ الحداد، السلطات الفرنسية.

## مقدمة:

تعد مقاومة الباشاغا المقراني من أهم الأحداث التاريخية التي شهدتها الجزائر خلال القرن التاسع عشر بعد مقاومة الأمير عبد القادر التي تبعتها عدة مقاومات، جاءت كاستمرارية للكفاح المسلح الذي لم يخدم بالقضاء على زعمائها بل تواصل من جديد من خلال مقاومة المقراني سنة 1871م، وتناولها بمعزل عن الطريقة الرحمانية والشيخ الحداد يعد عملا ناقصا بالنظر إلى الدور الفعال الذي لعبه هذا الشيخ و أتباعه في هذه المقاومة، فقد كانت الطرق الصوفية ومن بينها الطريقة الرحمانية تعلم القرآن الكريم واللغة العربية ومبادئ الإسلام، فحافظت عليها أمام محاولات فرنسا الرامية إلى طمسها، وقد عملت أيضا على مقاومة كل المحاولات لمحو الشخصية الجزائرية، وبالإضافة لذلك كان لها دور بارز في العديد من المقاومات الشعبية، أبرزها مقاومة المقراني. وسنحاول في هذه الدراسة إبراز أهمية التعاون بين عائلة المقراني وعائلة الشيخ الحداد في هذه المقاومة.

### 1) ظروف وأسباب المقاومة:

- شهدت الجزائر في الفترة الممتدة ما بين (1865 - 1870م) أوضاعا معقدة في كل الميادين: (السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية والعسكرية)، وهي كالاتي:
- كانت الإمبراطورية الفرنسية الثانية تقوم بعملية تهجير واسعة للأوروبيين من فرنسا وأوربا إلى الجزائر من أجل الاستيطان الاستعماري.
  - كانت البلاد تعيش حالة حرب بسبب العمليات العسكرية الواسعة من طرف الجيش الفرنسي خاصة في القبائل الكبرى والصغرى.
  - عرفت الجزائر سنوات الجفاف وهجمات الجراد، وانتشار الأمراض والأوبئة والزلازل ما بين (1865 - 1868م)، فأثر ذلك على الآلاف من الجزائريين عكس الأوروبيين الذين لم يتضرروا لأنهم يملكون أراضي خصبة ومخازن، وقد كان الباشاغا المقراني ممن ساعدوا الفلاحين في هذه الأزمة.
  - طبقت السلطات الفرنسية في هذه الفترة سياسة تحطيم نفوذ الأسر والعائلات الجزائرية الكبيرة في البلاد<sup>(1)</sup>.

إنّ الأوضاع المزرية التي عرفتها الجزائر في شتى الميادين، تمثل ظروف ممهدة لمقاومة المقراني<sup>(2)</sup>، فيتضح لدينا أن هذه المقاومة لم تظهر من العدم، بل هناك ظروف معينة ساعدت على ظهورها. أما الأسباب الرئيسية للمقاومة، فهي كما يلي:

- هزيمة فرنسا العسكرية واستبدال الحكم العسكري في الجزائر بالحكم المدني، ما أدى لعدم استقرار الولاية.

- قانون كريميو<sup>(3)</sup> في 24 أكتوبر 1870م، الذي منح اليهود حقوق المواطنين الأصليين دون أن يمنح أي شيء للمسلمين.

بالإضافة لأسباب أخرى تمثلت فيما يلي: (توسيع نطاق التعمير و ما ترتب عنه من نتائج اجتماعية، و تجنيد المسلمين لصالح فرنسا ضد ألمانيا في حرب 1870م... إلخ)<sup>(4)</sup>.

كما أن هناك أسبابا تخص الباشاغا محمد المقراني<sup>(5)</sup> نفسه، والتي جعلته يخوض غمار هذه المقاومة، نظرا لما تعرض له من مشاكل مادية ومعنوية، قد قلصت من نفوذه، وهي:

- مأساة المجاعة الأليمة التي وقعت سنتي 1867 و 1868م، وعدم مبالاة السلطة الفرنسية بمصير الجزائريين، فاقنتع الباشاغا المقراني بتعسفهم ما ترك فيه جرحا عميقا.

- سعي الكنيسة المسيحية لتمسيح الأطفال اليتامى على إثر المجاعة، والإهانة لمقدساتهم الدينية، فتألم الباشاغا المقراني إزاء ذلك.

- نظر الباشاغا المقراني للنظام المدني الذي أعلن في مرسوم 24 أكتوبر 1870م على أنه تشجيع للمعمرين الأوروبيين في الهيمنة، كما نص أيضا على:

- إلغاء النظام العسكري وتعويضه بالنظام المدني.

- إعطاء الجنسية الفرنسية لليهود الجزائر بصورة جماعية... وغيرها<sup>(6)</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك هناك:

- محاولة ابن عمه "محمد بن عبد السلام" قائد عين تاغروط مزاحمته في منصبه الباشاغوية بدعم من بعض الضباط الفرنسيين.

- محاولة السلطة الفرنسية إضعاف شخصيته ونفوذه السياسي في إطار تحطيم كل الأسر الجزائرية<sup>(7)</sup>.
- مشكلة الديون التي اقترضاها الباشاغا من بنك الجزائر، ومن الثري اليهودي "مسرين" في أزمة مجاعة 1869م لمساعدة المنكوبين، فتعهد "ماكماهون" بتسديدها له من ضرائب سكان المنطقة، وهذا التعهد هو ما جعل المقراني يمضي وصلوات باسمه للبنك الجزائري والسماسة اليهود، ولكن بمجيء السلطة المدنية تنكر للمقراني، فوجد نفسه في أزمة مالية، اضطرت له رهن أملاكه لأداء الديون التي عليه، وتعلم الدرس الأول من السلطة المدنية فبدأ بالإعداد للمقاومة<sup>(8)</sup>.
- عانى المقراني من مضايقات كثيرة، من طرف أفراد عائلته ومن طرف السلطة الفرنسية خصوصا أن هذه الأخيرة قد تمكنت بالتحالف مع اليهود من خداع الباشاغا وتدميره بطريقة غير مباشرة مثلت ضربة قوية له، ما يعني أن خدماته انتهت بالنسبة لهم.
- لقد أشعل نيران المقاومة نداء كريميو، ما اعتبره الباشاغا تسلطا لليهود على المسلمين الجزائريين، فقال قولته المشهورة: «إنني مستعد أن أضع رقبتني تحت السيف ليقع رأسي ولكن لا أطيع أبدا أحدا من غير الجنود، ولا أقبل أن أخضع لحكومة من التجار واليهود»، فقرر بصفة نهائية أن يخوض المقاومة<sup>(9)</sup>. ومن هنا نجد أن ما جعل المقراني يتحرك في السبعينات بالذات هو أنه تأثر بالوضع مثلما تأثر الجزائريين به سابقا، كما أنه تأكد أكثر من تضاعف مآسي الجزائريين، فهو رغم تعاطفه معهم من قبل لم يتمكن من مساعدتهم، و لكن مع تدهور أوضاع البلاد، استغل الفرصة و التحد مع الجزائريين في إعلان المقاومة على فرنسا، ويمكن اعتبار ذلك ردا لهيبته في المنطقة، ودفاعا عن بلده الجزائر من خلال هذه المقاومة.

## 2) تمرد جنود الصبايحية وبداية المقاومة:

ظهرت البوادر الأولى للمقاومة منذ شهر جانفي 1871م، حين تمرد جنود الصبايحية<sup>(10)</sup> الجزائريين حيث شاركوا السكان واغتلوا الضباط الفرنسيين و نادوا بالاستقلال وأخذوا يرددون: «إن باريس قد سقطت في يد البروسيين ... إن الجزائر ستثور كلها، وإن هذه

الفرصة فذة لطرد الفرنسيين». أما في فيفري قامت جماعة من سكان أولاد عيدون في الميله بمحاصرة برج المدينة بالقوات الفرنسية المتمركزة به، كما ظهرت حركة أخرى في تبسه وضواحيها<sup>(11)</sup>.

مثلت كل من حوادث جانفي و فيفري 1871م مقدمة للمقاومة الحقيقية التي قادها الباشاغا محمد المقراني ابتداء من 16 مارس 1871<sup>(12)</sup>.

إن محمد المقراني وإخوانه أعلنوا الحرب رغم عقد الصلح الفرنسي البروسي، كما اضطر الباشاغا المقراني لطلب العون من الطريقة الرحمانية<sup>(13)</sup> ومن عامة القبائل، حيث لم يستجب لدعوته سوى أعضاء الطريقة الرحمانية الذين ساهموا بكل ما لديهم في هذه المقاومة<sup>(14)</sup>. خصوصا أن الطريقة الرحمانية شهدت انتشارا واسعا على يد صاحب الطريقة "الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري" في الجزائر وتونس والسودان وغيرها، وتواصلت في انتشارها على يد مشائخ ومنهم "الشيخ علي بن عيسى" وتلامذته، وتلاميذهم الكبار "كالشيخ محمد أمزيان بن الحداد" و"الشيخ علي" وغيرهم<sup>(15)</sup>.

إن الأحداث والتطورات التي وقعت مع بداية السبعينات من القرن التاسع عشر صحبتها دعاية دينية وطنية ثورية، قام بها الشيخ "الحداد"<sup>(16)</sup> الذي كان طاعنا في السن وهو ينتمي إلى عائلة الحدادين<sup>(17)</sup>، وكان قد أصبح زعيما للطريقة الرحمانية، حيث أعلن الشيخ "الحداد" الجهاد بعد ما ألح عليه ابنه "سي عزيز"، ونادى الشعب، قائلا: «إن يوم الخلاص قد حان»، هكذا راجت فكرة الجهاد بين أوساط السكان ضد الفرنسيين، حيث شملت المساجد والأسواق والمقاهي والأماكن العامة، بفضل نشاط أتباع الشيخ الحداد وخلال بضعة أسابيع ساهمت جهة القبائل وحدها بمائة وخمسين ألف رجل<sup>(18)</sup>. ويجدر الإشارة هنا، أن اندفاع الرحمانيين للمقاومة لم يكن بسبب العاطفة، كما يصفها الكتاب الفرنسيون، إنما لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وجاء العامل الديني ليدعمها<sup>(19)</sup>.

وبالرغم من إعلان الشيخ الحداد للجهاد في 8 أفريل 1871م، إلا أنه لم يمكن بميل إلى المقاومة لولا قيام ابنه "الشيخ محمد" و"الشيخ سي عزيز" بإقناعه بها، حيث كانا على

عكسه يميلان إلى المقاومة ويتحمسان إلى الجهاد<sup>(20)</sup>، غير أن هذا الدور الفعال الذي لعبه "الشيخ الحداد" في مقاومة المقراني، و الذي صار من خلاله هو الزعيم الروحي لهذه المقاومة لم يخطط له بمفرده، بل كان بالتنسيق مع "الباشاغا المقراني" هذا الأخير الذي قام بعدة محاولات لاستمالة الشيخ الحداد بعدما فشل في استمالة رؤساء العائلات الأرستقراطية إليه لكنه تمكن من ضم الشيخ الحداد وأتباعه إليه، فعوض بذلك كل ما فقده في الآخرين من تأييد نظرا للنفوذ الواسع الذي كان له على سكان جبال: (جرجرة والباور والبيبان وحوض وادي الصومام و وادي الساحل)<sup>(21)</sup>. لكن الزعيم العسكري للمقاومة هو الباشاغا المقراني الذي أعد نفسه جيدا لهذا الدور منذ وقت طويل، حين كان يراقب التطورات في أوروبا والجزائر باهتمام كبير<sup>(22)</sup>.

كما أن محمد المقراني بعد الإعلان عن قرارات مرسوم 24 أكتوبر 1870م التي نصت على إلغاء النظام العسكري وتعويضه بالمدني، قدم استقالته من منصب الباشاغوية عدة مرات إلى السلطات الفرنسية، لكنها رفضت إلى غاية 9 مارس 1871م، حيث أصر الباشاغا المقراني على استقالته فأعاد للسلطات مرتبه الشهري عن شهر فيفري، وأعاد إلى وزارة الحرب شارة الباشاغوية المتمثلة في البرنوس الخاص بالوظيفة، وما بين 10 و 15 من نفس الشهر عقد اجتماعات متتالية مع رجال عائلته وكبار قواده، وكان آخرها الاجتماع الحربي الموسع يوم 14 مارس، الذي قرر فيه إعلان المقاومة<sup>(23)</sup>.

إن المقراني لم يلتحق بالمقاومة سرا، ولم يرفض الباشاغوية في الخفاء، وإنما دعا إلى الجهاد علانية وأطلق البراحين في الأسواق والشوارع ينادون بالجهاد وينطقون باسمه، بأن الموت خير من حياة الجاه والنفوذ تحت علم الاحتلال.

وكذلك خاطب المقراني في النداء الذي وجهه إلى الشباب والفلاحين وكل الأهالي ليكونوا يدا واحدة وقوة واحدة:

المقراني بسلاح	عول على الكفاح
قام ودار البراح	يا أهلي الموت خير
رباعين <sup>(24)</sup> وفلاح	عمرته البطاح <sup>(25)</sup>

يأخذ هذا النداء طريقه إلى القلوب الجريحة، وتسري المقاومة عبر أنحاء التراب الوطني حيث سار محمد المقراني في يوم 16 مارس 1871م نحو مدينة برج بوعرييج على رأس حوالي 7 آلاف فارس لفرض الحصار عليها وعلى خصومه لتصفية الحساب مع الإدارة المدنية، ومن برج بوعرييج امتدت المقاومة لتشمل قرابة نصف البلاد من: (زكار ومليانة وشرشال غرب مدينة الجزائر، إلى جيجل والقل شرقاً، وإلى الحضنة والمسيلة وبوسعادة وتقرت وباتنة وبسكرة وعين صالح جنوباً)، وظل محمد المقراني يكافح إلى أن قتل في معركة واد سفلات يوم 5 ماي 1871م، فخلفه أخوه بومرزاق في قيادة المقاومة<sup>(26)</sup>.

### 3) استشهاد محمد المقراني ومواصلة بومرزاق للمقاومة:

تمكن بومرزاق و أتباعه من الهيمنة على أكبر مساحة من تراب الجزائر، وذلك بعد مقتل محمد المقراني، فأرغموا الحاميات العسكرية والمعمرين على إخلاء بلاد القبائل وجميع الهضاب العليا بقسنطينة إلى جبال الأوراس، باستثناء باتنة وسطيف وسهول الحضنة ومدنيتي المسيلة وبوسعادة اللتين استقبلتا أخاه و خليفته بومرزاق بترحيب كبير، سرعان ما انقلب الوضع على "بومرزاق" و"سي عزيز" هذا الأخير الذي استسلم في 13 جويلية بعد هزيمته في معركة أشريدان التي أرغمته على الإقلاع عن حصار الأربعاء ناث إيراثن، فاضطرت القوات الفرنسية إلى طلب المدد فأجيب في ذلك، ومن هنا قامت بعمليات القمع في عدة مناطق قبل قيامهم بالهجوم من 7 إلى 12 أكتوبر على معقل بوطالب في جبال الحضنة التي اعتصم بها أتباعها بعد انتصارهم، غير أن هزيمة أتباع بوطالب لم تكن لتمنع بومرزاق المقراني من نقل المقاومة إلى الجنوب حتى ثوقت وورقلة حيث أخذ وأسر في 20 يناير 1872<sup>(27)</sup>.

يظهر لنا من خلال هذه الأحداث، أنه وبالرغم من الجهود المشتركة والمبدولة من طرف بومرزاق المقراني والشيخ سي عزيز، إلا أنها باءت بالفشل جراء عدم ضبط وتنسيق بعض الأمور.

#### 4) نتائج المقاومة:

إن فشل مقاومة الباشاغا محمد المقراني والشيخ الحداد لم يكن فجائيا بل جاء نتيجة أخطاء ارتكبوها، إضافة إلى مضايقة السلطات الفرنسية لهم، إذ أنه عندما قتل محمد المقراني في معركة ماي 1871م ضعفت المقاومة، وخلفه في القيادة أخوه "بومرزاق" و"الشيخ سي عزيز"، فارتكبت القيادة الجديدة خطأين إستراتيجيين، هما:

- كان مد الثورة إلى الصحراء حيث النقص في السكان والعتاد والماء يشكل خطرا.
- استعمال طريقة الهجوم المباشر ضد الفرنسيين ما أدى لأسرهما من الفرنسيين<sup>(28)</sup>.

إن القيادة الجديدة لم تكن تملك الخبرة الكافية لإعداد الخطط، ما سارع بفشلها واستسلام قادتها، ولكن رغم ذلك قامت بمحاولات ضد القوات الفرنسية، وأثبتت لهم صمود الجزائريين ودفاعهم المتواصل عن بلادهم.

كان الرحمانيون أول من ألقى السلاح حيث استسلم الشيخ "سي عزيز" للجنرال "اللمان" في 30 جوان 1871م بعد أقل من ثلاثة أشهر من إعلان أبيه للمقاومة، أما أخوه الشيخ "محمد" فقد غرر به أحد رجال عائلته، فقاده إلى بجاية وسلمه إلى حاكمها الفرنسي في 2 جويلية، أما أبوهما سلم نفسه للجنرال "سوسي" في 13 جويلية في تيزي الأكلح قرب ذراع الأربعاء بعد أن علم بسقوط ولديه في يد القوات الفرنسية. وأدى استسلام الشيخ الحداد وابنيه لإستسلام العديد من الرجال والقبائل، كما أن استسلام أفراد هذه العائلة جاء نتيجة ظهور خلافات مع بومرزاق المقراني، وكذلك بعض المضايقات التي تعرضوا لها من طرف السلطات الفرنسية<sup>(29)</sup>.

تمت معاقبة العائلتين بمصادرة أملاكهم، فقد مرت مصادرة أملاك المقراني وأفراد عائلته بعدة مراحل، إذ بدأت عملية المصادرة بعد 10 أيام فقط من إعلان المقاومة، ومنذ ذلك التاريخ توالى قرارات المصادرة بشأن هذه العائلة إلى غاية النصف الثاني من سنة 1873م وبعد انتهاء السلطات الفرنسية من إحصاء أملاكهم وفرغت من محاكمتهم، فأصدرت في 29 جويلية 1873 ستة قرارات تحوي بالتفصيل كل الأملاك العقارية وغيرها لستة فروع من

عائلة المقراني فوضعت يدها على أملاكها، وبذلك تم تجريد المقراني وكل أفراد عائلته من كل ممتلكاتهم، بعد أن تم إحصاؤها بطريقة دقيقة استغرقت عامين و أربعة أشهر.

كما اتبع الفرنسيون ضد أملاك عائلة الشيخ الحداد نفس الأسلوب في المصادرة الجماعية لكل أملاكها، بالرغم من كونها ليست عائلة أرستقراطية بل هي فقيرة، لكن صودرت أملاكها وأملاك أتباعها، وفي مسألة مصادرة أملاك العائلتين، فإن فرنسا لم تأخذ بعين الاعتبار الحالة المادية لكليهما، بل كان همها الوحيد تأديبهم، بحيث لم تكثف بالمصادرة بل عمدت إلى محاكمتهم من أجل القضاء عليهم نهائياً<sup>(30)</sup>.

لقد اتهم "بومرزاق" في هجومات بالإضافة إلى التخريب وعدة قضايا أخرى، فصدر عليه حكم بالإعدام في 27 مارس 1873، فأثر ذلك على المقرانيين فاحتجوا على ذلك وبعدها تراجعت فرنسا عن قرارها وعوضته بالنفي إلى جزيرة كاليدونيا. كما قدم "الشيخ أمزيان بن علي الحداد" وابناه: "عزيز" و"محمد" إلى المحاكمة في نفس المحضر الذي قدم فيه "بومرزاق"، وأمام نفس المحكمة بقسنطينة، حيث صدرت الأحكام على الشيخ و ابنه في 19 أبريل 1873 فحكم على الوالد بالسجن الانفرادي 5 سنوات، وعلى الشيخ عزيز بالنفي، وعلى أخيه بالسجن الانفرادي 10 سنوات، وبعدها توفي الشيخ الحداد في 29 أبريل 1873م عن عمر يناهز 83 سنة على إثر مرضه. وبالإضافة إلى ذلك، عاقبت السلطات الفرنسية كل الأشخاص الذين شاركوا في المقاومة، وتم توزيعهم على عدة محاكم في الجزائر العاصمة وقسنطينة والبليدة، وقدموا إليها أفواجا وجماعات بصورة دورية<sup>(31)</sup>.

يظهر لنا من خلال هذه الأحداث، أنه وبالرغم من الجهود المبذولة من طرف بومرزاق والشيخ سي عزيز، إلا أنها باءت بالفشل جراء عدم التنسيق بينهما، ما أدى لفشل المقاومة ومعاقبة أفراد العائلتين سواء عن طريق المصادرات الجماعية والشخصية لأملاكهم وأموالهم أو عن طريق المحاكمات التعسفية التي نتج عنها إعدام البعض منهم، ونفي البعض وتشريدهم. أما بالنسبة للأشخاص الذين شاركوا في هذه المقاومة، فقد تم أيضا محاكمتهم بقساوة، ما يؤكد أن السلطات الفرنسية تعمدت تسليط أقصى العقوبات على هؤلاء الأشخاص من أجل أن يكونوا عبرة لغيرهم ممن يتجرأ على محاربة فرنسا.

## 5) أهمية انضمام الطريقة الرحمانية إلى المقاومة:

تعاونت الطريقة الرحمانية مع المقراني ما أدى لإنطلاق المقاومة بعدما كانت ذات طابع أرستقراطي، وبعد إعلان الشيخ الحداد للجهاد في 8 أفريل 1871 ببلدة صدوق تحولت لمقاومة شعبية، امتدت إلى كل المناطق، وبذلك فإن تحركات الشيخ عزيز وأباه مثلت خطرا بالنسبة لفرنسا. وتعتبر مقاومة المقراني والشيخ الحداد سنة 1871 من أهم وأقوى المقاومات الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي بعد مقاومة الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، وهذه الأهمية والقوة نابعة من عدة أمور، تتمثل فيما يلي:

- دور محمد المقراني والشيخ الحداد في المقاومة: أصبح الجزائريون لا يفكرون في عملية عسكرية دون أن يجعلوا أولئك الإقطاعيين على رأسهم، ودون أن يشكلوا الصفوف القديمة والمجموعات القبلية القديمة<sup>(32)</sup>، كما أن هذه المقاومة كانت مصطبغة بصبغة دينية حيث تمكنت الطريقة الرحمانية بقيادة "الشيخ الحداد" منذ إعلان الجهاد من تعميم المقاومة، انطلاقا ببلدة صدوق، وامتدت إلى كل المناطق والقبائل الشمالية من الجزائر العاصمة غربا إلى القل وجيجل وباتنة شرقا، وحوصرت مراكز الفرنسيين وقلاعهم في: (بجاية - دلس - تيزي وزو - أربعاء نايت إيراثن - ذراع الميزان - الأخضرية ... وغيرهم) كما امتد نفوذهم إلى القبائل الصغرى والشمال القسنطيني، وفي العاصمة وأحوازها وفي جبال البابور بالشمال القسنطيني والمنطقة الشرقية لوادي الصومام<sup>(33)</sup>، وبذلك شكلت تحركات "الشيخ سي عزيز" وأباه خطرا على فرنسا، ما شكل دافعا قويا للجزائريين لمواصلة الكفاح، ومثلا حيا عن ضرورة التعاون بين مختلف الجهات من أجل تحرير البلاد.

- استعمال أساليب جديدة للتعبير عن الرأي العام الجزائري: تكمن أهمية هذه المقاومة في كونها تعبير عن التذمر من السياسة التي اتبعتها فرنسا في البلاد في تلك الفترة، وهناك شهادة معبرة من أحد شيوخ القبائل في شكل رسالة وجهها إلى أحد أعضاء البرلمان الفرنسي في أواخر 1872. ويمكن أن نتعرف من خلال هذه الرسالة عن مواقف الرأي العام الجزائري حول عدد من المسائل، وفي مقدمتها تقييمه للعلاقات بين المجتمع الجزائري وبين الاحتلال، فشيخ القبيلة هذا يرد على من يتهم العرب بكونهم يتربصون بفرنسا

لينقضوا عليها في أول فرصة، ليختم الشيخ رسالته ملحا على ضرورة تحديد فرنسا لسياستها إزاء الجزائريين، وأن تعتمد على أسلوب الصراحة في التعامل وليس المراوغة<sup>(34)</sup>، وكذلك بعد مرسوم كريميو، انهمر سيل من العرائض من مختلف المدن والمناطق، وأبرزها عريضة قسنطينة التي وقعها ألفي شخص من مختلف المناطق في العمالة، فصاغت العريضة رفضها للتجنيس الجماعي بطريقة مهذبة، حيث بينت أن الوضع الذي عليه الجزائريون لا يؤهلهم للتمتع بحقوق المواطنة الفرنسية بشكل مفيد. أما وسائل النضال التي استخدمت ما بين (1871-1919م)، منها: كتابة العرائض وإرسالها إلى المسؤولين في مختلف المستويات في الجزائر وفي فرنسا أيضا، وقد تزايدت في القرن 19م، أهمها عريضة قسنطينة 1887 والوسيلة الثانية هي الصحافة مع ضرورة إصدار الجريدة بالفرنسية لا بالعربية، والوسيلة الثالثة هي المطالبة بحق التمثيل في المؤسسات تلك الموجودة على مستوى الجزائر وفرنسا<sup>(35)</sup>.

**- نشوب مقاومات محلية:** إنَّ فشل هذه المقاومة زاد من عزيمة الجزائريين، والدليل على ذلك قيام عدة مقاومات أخرى مماثلة مثل مقاومة أولاد سيدي الشيخ 1864 حيث شرعت فرنسا في التسلل إلى الصحراء<sup>(36)</sup> ثم نشبت من جديد في 1881 بقيادة الشيخ بوعمامة، إضافة لمقاومة الأوراس 1916، هذه الأخيرة التي أخذت طابع احتجاج تعبيراً عن رفضها للتجنيد في الحرب العالمية الأولى<sup>(37)</sup>، ومنذ ذلك الحين اتخذت المعارضة ضد الاحتلال أشكال سياسية، وارتبطت بصلة وثيقة مع الدفاع عن المطالب الاجتماعية والاقتصادية والمطالب السياسية في نفس الوقت<sup>(38)</sup>. وهكذا فإن هذه المقاومة مثلت استمراراً للمقاومات السابقة، ودافعا لانطلاق مقاومات أخرى تواصل عملية تحرير البلاد من الاحتلال الفرنسي، سواء بالكفاح المسلح أو السياسي.

كما أن هناك أمورا أخرى تدل على الدور الفعال لهذه المقاومة، وهي كالاتي:

- الاستجابة شبه الجماعية للسكان الذين انضموا إليها أفواجا أو جماعات بمئات الألوف وأوصل "لويس رين" عددهم إلى حوالي مليون شخص ما بين محارب ومؤيد ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية، وذلك بعد وصل التذمر أقصاه، واشتد الضغط الاستعماري في مختلف المجالات: (السياسية - العسكرية - الاقتصادية -

الاجتماعية - الدينية والثقافية)، ولم يكن هناك مفر من الصدام بين الطرفين وخاض المجاهدون 340 معركة كبيرة فضلا عن المعارك و المناوشات الصغيرة.

- اتساع الرقعة الجغرافيا التي شملتها هذه المقاومة من شرشال وبني مناصر غرب الجزائر العاصمة و متيجة ، إلى القل و عنابة و سوق أهراس شرقا وإلى عين الطيبة في أعماق الصحراء الكبرى الشرقية جنوبا، وهو ما يمثل أكثر من نصف مساحة البلاد تقريبا.
- طول المدة الزمنية التي استغرقتها بالمقارنة مع غيرها من مقاومات القرن التاسع عشر باستثناء مقاومة الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي، مما جعل "لويس رين" يقول: «إن عام المقراني طويل امتد من 14 جويلية 1870 إلى 20 جانفي 1872».
- ضخامة عدد القوات العسكرية الفرنسية التي تم تجنيدها ضد هذه المقاومة على اختلاف أنواعها<sup>(39)</sup>.

يتضح لنا من تزايد القوات الفرنسية التي جندت للقضاء على المقاومة، مدى قلق وتحوف السلطات الفرنسية من انتشار المقاومة أكثر ومن نجاحها، وذلك ما يهدد مصالحها الخاصة في الجزائر، فسعت بكل قواتها من أجل القضاء عليها وفي أسرع وقت ممكن.

إن مشاركة الطريقة الرحمانية في مقاومة المقراني 1871م زاد من انتشارها في الجزائر ومنحها مكانة كبيرة حيث حولها من الطابع الارستقراطي إلى مقاومة شعبية، كما أن المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي خلال القرن 19م كانت كلها تقريبا تحت قيادات صوفية أخرى عرفتها الجزائر، ولذلك كان لها دور كبير في تنظيم المجتمع الجزائري وتوعيته لضرورة الجهاد ضد الاحتلال. وقد ساهم الشيخ الحداد من خلال الطريقة الرحمانية في دعم مقاومة المقراني بقوة، وبكل الوسائل اللازمة لنجاحها، مثلما دعمت هذه الطريقة مقاومات سابقة منها: (الشيخ بويغلة و لالة فاطمة نسومر). كما أن فشل مقاومة 1871م زاد من قوة إيمان الجزائريين وعزيمتهم، وجعلهم يواصلون الكفاح ويواجهون المصاعب، والدليل على ذلك قيام مقاومات عديدة بعد مقاومة المقراني والشيخ الحداد.

## الهوامش والإحالات

- (1) - يحيى بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، ج1، ثورات القرن التاسع عشر ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص ص 228-231.
- (2) - **العائلة المقرانية**: يرى معظم المؤرخين أن نسب أسرة المقراني يعود إلى فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، ويذكرون أن أجدادها من قبائل عياض، هاجروا إلى إقليم المغرب العربي في القرن 11م خلال الزحف الهلالي على الإقليم، واستقروا بجبال قلعة بني حماد في المعاضيد شمال مدينة المسيلة وجنوب شرق مدينة برج بوعرييج، وارتبط تاريخهم هناك بالأمرء الحمادين، وهناك من ادعى أن المقرانيين يرتبطون بالأمرء الحفصيين الذين كانوا يحكمون قسنطينة، وهاجر آخرهم وهو "الأمير عبد العزيز" إلى قلعة بني عباس بعد أن احتل الإسبان بجاية في 1510م. ينظر: يحيى بوعزيز، ثورة 1871 دور عائلي المقراني والحداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت ص ص 43-44.
- (3) - **كريميو**: هو يهودي ينوب عن الجزائر في لجنة الدفاع الوطني، واغتنم تلك الفرصة فاستن قانونا فرنسيا يعتبر اليهود الجزائريين الساكنين في أرض شمال إفريقيا، الخاضعة للحكم المدني، مواطنين فرنسيين، ويسمى ذلك بقانون كريميو 24 أكتوبر 1870م، وكان اليهود الذين شملهم هذا القرار حوالي 30.000. ينظر: محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية (نشأتها، تطورها، أعمالها) من 1903 إلى 1931، المجلد الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 367.
- (4) - إيف لاکوست وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر - إطار نشأة الجزائر المعاصرة ومراحلها، ج2 تمهيد: جان دريش، ترجمة: رابح إسطنبولي - المنصف عاشور - مراد تفاحي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص ص 310 - 314.
- (5) - **الباشاغا المقراني**: هو ابن "الحاج أحمد المقراني" الذي عرف بنفوذه القوي إلى أن توفي سنة 1853م، وعين الفرنسيون مكانه ابنه "محمد" الملقب بلقب "الباشاغا"، وهو أقل نفوذا من منصب الخليفة، ومع 1868م تقلص نفوذه تماما. ينظر: يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر، ج1، المرجع السابق، ص ص 232-233.
- (6) - المرجع نفسه، ص ص 234-235 .
- (7) - يحيى بوعزيز، ثورة 1871، المرجع السابق، ص ص 353-354.
- (8) - يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر، ج1، المرجع السابق، ص 235.
- (9) - نفس المرجع، ص ص 235-236 .

(10) **الصبايحية** : يسميهم السكان السبائس (spahis) وأصل الكلمة تركي، وتعني الخيالة ، وأنشئت الصبايحية سنة 1834م. فبالرغم من أنهم يعملون لصالح فرنسا، لكنهم عارضوا تصرفاتهم، ولم يكونوا أوفياءً بالكامل، لذلك عندما حانت الفرصة انتهزوها للتمرد عليها والتخلص من سيطرتها. ينظر: مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، الترجمة من الفرنسية: د. حنفي بن عيسى المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 93.

(11) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900 - 1930)، ج2، ط1، منشورات دار الآداب، بيروت، 1969، ص 64.

(12) - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين، ج1، المرجع السابق، ص 238.

(13) - **الطريقة الرحمانية**: هي طريقة صوفية نشأت في الجزائر على يد مؤسسها "محمد بن عبد الرحمان" وتوزعت زواياها في عدة مناطق من البلاد، منها زاوية صدوق التي أسسها والد "محمد أمزيان" وفي نهاية المطاف أخذ "الشيخ الحداد" الميثاق على خليفة السيد "محمد بن عبد الرحمان" في زاوية سيدي علي بن عيسى، وعند عودته إلى قرية صدوق تولى تسيير زاوية أبيه، واختاره أهله لأن يكون إماما على القرية، و أصبح بعد ذلك خليفة لطريقة "محمد بن عبد الرحمان". ينظر: بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر 1830 - 1989، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص 202.

(14) - Ageron (Charles-Robert), Histoire de l'Algérie contemporaine (1830-1883), que sais je ?, n° 400, 8 éd, P.U.F, Paris, 1983 , p41.

(15) - أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر 1906، ص 543.

(16) - **الشيخ الحداد**: هو "محمد أمزيان" تعلم في زاوية أبيه "علي الحداد" فحفظ القرآن، وعمل كإمام في مسجد بلديته صدوق، ومع تكاثر الطلاب في زاويته سمح له بإعطاء الورد كمقدم وخليفة لطريقة السيد "محمد بن عبد الرحمان"، وتمكنت عائلة الشيخ الحداد من فرض سيطرتها الدينية على مناطق عديدة. ينظر: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، ج1، المرجع السابق، ص 242-243.

(17) **عائلة الحدادين**: عرف أفراد عائلة الشيخ الحداد بهذا الاسم، والسبب في ذلك هي العادة المتبعة لدى القبائل لإعطاء اسم الجد المشترك، وهكذا سمي كل منهم فلان بن الحداد أو فلان بن فلان بن الحداد. والأغلبية منهم لا يشتغلون بالحدادة حاليا، أما البقية فبقوا حدادين يمتنون هذه الحرفة حتى اليوم. وبذلك فهم حدادون بواسطة أصلهم وأصل أجدادهم، وقرينتهم تدعى الحدادون "إيجادن"، كما اعتاد الناس على تسمية والد "سي عزيز" بالشيخ الحداد بدل تسميته باسمه الحقيقي "محمد أمزيان بن علي" الذي يجهل لدى الجماهير. ينظر: يحي بوعزيز، وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 142-143.

- (18) - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 64.
- (19) - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين ...، ج1، المرجع السابق، ص ص 247-249.
- (20) - يحي بوعزيز، وصايا الشيخ الحداد، المرجع السابق، ص 15.
- (21) - يحي بوعزيز، موقف العائلات الأرسطوقراطية من الباشا محمد المقراني وثورته عام 1871، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1994، ص 15.
- (22) - سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 65.
- (23) - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين ...، ج1، المرجع السابق، ص ص 237-238.
- (24) - رباعين: يمكن أن تؤدي معنى الشباب، حيث يرد على السنة العامة في مقام الحث على التعاون.
- (25) - البطاح: الأرض المنبسطة. للمزيد حول هذا الشعر، ينظر: التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص 225.
- (26) - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين ...، ج1، المرجع السابق، ص ص 239-240.
- (27) - إيف لاکوست وآخرون، المرجع السابق، ص ص 317-318.
- (28) - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 65.
- (29) - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين ...، ج1، المرجع السابق، ص 255.
- (30) - يحي بوعزيز، ثورة 1871 ...، المرجع السابق، ص ص 316-324.
- (31) - نفس المرجع، ص ص 327-345.
- (32) - إيف لاکوست وآخرون، المرجع السابق، ص 319.
- (33) - يحي بوعزيز، ثورة 1871 ...، المرجع السابق، ص 257.
- (34) - جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المتحف الوطني للمجاهد الجزائر، 1994، ص ص 167-168.
- (35) - نفس المرجع، ص ص 171-176.
- (36) - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 66.
- (37) - إن الجزائريين لم يعدوا الوسيلة في التعبير عن أنفسهم ولو كانت بسيطة، إذا تضاعف عددهم نتيجة استمرار الفرار من الجيش الفرنسي خلال سنتي 1915 و 1916، هذا دون العمليات العسكرية النشيطة التي شهدت الجزائر من وهران غربا إلى عنابة شرقا، ومن القبائل شمالا إلى الهقار جنوبا، وآخرها انتفاضة الأوراس 1916. ينظر:
- Victor Demontes, « l'Algérie », in (Afrique. Française Bull), juillet - Aout 1919, N°7 et 8, P241.
- (38) - إيف لاکوست وآخرون، المرجع السابق، ص 318.
- (39) - يحي بوعزيز، موقف العائلات الأرسطوقراطية ...، المرجع السابق، ص 6.